بناء جديد في هيكل بعلبك

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي

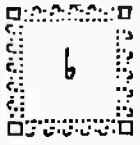

فتئت مصلحة الآثار اللبنانية تواصل ابحاثها وتتابع عمل رفع الانقاض المفيد في هيكل بعلبك. فمنذ عهد غير بعيد باشرت اعادة ترميم صُفّة[1] في الجهة الشمالية من ساحة الاضاحي الفسيحة كما ارجعت بناية صغيرة توشك ان تكون مكعبة وذلك في الباحة نفسها. وهذا البناء الصغير متماسك رصف الحجارة وخالٍ من الزخرف وقائم عند قاعدة السلّم الكبرى التي كانت تؤدي الى هيكل هليوبوليس لجوبيتر وقد سارت بعملها سيرًا حسنًا.

ولا مندوحة عن التصريح بان اعادة ترميم هذا البناء الاخير تفضي الى اعجاب الزائرين المعتادين حتى الان المشهد الفسيح للفناء الطليق الذي ينتهي عند اسفل فرجة الهيكل والاعمدة الستة الجبارة والى لفت نظرهم.

ولئن لوحظت قاعدة بناية كبرى بين هذا البناء الصغير ومدخل الفناء لازدادت الدهشة لانها تحجب بحجمها واجهة الهيكل عن عبدة الاله الذين كانوا يؤمونه.

فكيف نفسّرُ هذا التطبيق الغريب الذي صنعه مهرة العمال المدينين لهم بهيكل بعلبك.

ولقد سنا مفتاح هذا اللغز السيدان پول كولار (Paul Collart) العالم الاثري والاستاذ في جامعتي جنيف ولوزان وبيير كوپل (Pierre Coupel)

---

١) الصُفّة: موضع مظلل في المسجد واهل الصُفّة كانوا اضياف الاسلام وكانوا يبيتون في مسجد النبي وقد اخذنا هذه الكلمة لترجمة لفظة exèdre الفرنسية وسناها ردهة المحادثات ذات المقاعد.

المهندس المعماري الاسبق لدى مصلحة الآثار في كتاب رائع دبجته يراعتها مما وعنوانه مذبح بعلبك العظيم[1].

ومما يثير اعجابنا هو صدور اول كتاب حول مذبح بعلبك الكبير سنة ١٩٥١ على حين ان التنقيبات الالمانية قد سبقت هذا التاريخ بخمسين سنة وصدر كتابان يصفان نتائجها ، ولكن عناصر الهندسة البنائية فرد اكتشافها الى ما عقد النية عليه السيد هنري سيريج (Henri Seyrig) سنة ١٩٣٠ عندما كان مديراً للآثار فدرس تلك العناصر الاستاذان كولار وكوبل وكان العزم على انتزاع الكنيسة البيزنطية التي حُفظ تصميمها وطرازها تماماً وذلك للبحث تحتها عن بقايا الابنية الوثنية التي كانت تحجبها فتبين لهم فوراً ان الكنيسة برمّتها المبنية بحجارة ضخمة كانت حجارتها مستعملة في بناء عظيم ما زالت قاعدته واسسه قائمة في موضعها وقد أُخذت منه ، وكان عدد الانقاض الموجودة بعد اعادة الترميم في وضع يخول تحديد هذا البناء الذي وصفه الاستاذان كولار وكوبل الان بالمذبح العظيم او « مذبح هليوبوليس — بعلبك البرج » . واسفرت الاعمال التي انجزت على نفقة الحكومة اللبنانية سنة ١٩٣٠ عن ٣٣٩ قطعة مزخرفة وعن زهاء ٣٠٠ قطعة اخرى وجدت كل لوحدها ، فأُخذ مقياس كل حجر من تلك الاحجار الضخمة كما اخذ رسمه وصُوّر تصويراً شمسياً .

ويعرض الكتاب الجديد اولاً لائحة جميع هذه المواد ويقترح مجموعة (بالرسم فقط) لحجارة الجزء الاعلى من البناء الضخمة ، ما يطلعنا على رسم هذا البناء وعلوّه .

وبالاستطاعة تقدير الزخرف وطراز النقوش الناتئة وتحديد تاريخ البناء عن طريق دراسة الاول وبخاصة دراسة طراز النقوش لنحاول بعدئذٍ تعيين الدور

(١) P. Collart et P. Coupel. *L'autel monumental de Baalbek.* (Institut français d'archéologie de Beyrouth. Bibl. arch., LII), VI-154. pp. in-f°, 96 pl. Paris, Geuthner, 1951.

الذي يمثله البناء في اقامة الطقوس الدينية التي كانت تجري في هليوبوليس .

وهذه الطريقة كما يلوح لنا لا يعتورها خطأ فلذلك يسعنا الارتياح كل الارتياح الى ايجاز نتائجها .

ومن المؤكد ان برجاً متراص رصف الحجارة كان يقوم على ارض مستوية التربيع ضلعه من العشرين الى الواحد وعشرين متراً لترتفع طبقاته الخمس في علوها الى الثمانية عشر متراً امام سلم هيكل جوبيتر الكبيرة ويحجب كل الواجهة عن الداخل الى المكان المقدس بطريق الباحة المسدسة الاضلاع .

ولقد كان البناء مشيداً بحجارة كبيرة جد الكبر وثقيلة وفق الطريقة التي كانت متبعة باتخاذ الحجارة الضخمة لهيكل جوبيتر وكان ثمة بابان على الواجهتين الشمالية والجنوبية يفتحان من جانب ومن اخر مع سلسلة ادراج انشئت لتأمين السير المزدحم وتسهيله وذلك من الارض الى السطح ومن السطح الى الارض اما السطح فكانت تدعمه عضادة قوية بارزة .

ولم يكن للبناء المتراص الحجارة غير اربعة ابواب قد اشرنا اليها ومنافذ صغيرة مقوّس شكلها .

وكان يلطّف منظر البناء الخارجي الشديد الخراشة التغشية بالشبه البرونز (كما يثبت ذلك وجود فرجات ملبسة بالصفائح المعدنية وآثار رباط من الشبه التي حفظت على الحجارة الضخمة) . اما تيجان رؤوس الاعمدة التي كانت مغشّاة بالشبه (برونز) فربما كانت من خشب الارز الذي لا ينال منه الاندثار منالاً وبالاستطاعة ان نزيد على ذلك انه من المحتمل ان يكون الشبه موشّى بالذهب كتيجان اعمدة الاروقة الداخلية وكغيرها من اشياء الامكنة المقدسة الكثيرة في الهياكل السامية .

فاي مشهد وهّاج لم يتخذ ذلك البرج تحت اشعة شمس بعلبك !

فالصفائح المعدنية قد اندرست منذ اجل بعيد في برتقة ذوي المصاهر .

اما النقوش المحفورة بالحجر التي كانت تزين السقوف فوق سلالم البناء الداخلية فما برحت موجودة . والزخرف المصنوع على اشكال هندسية سداسية الاضلاع خاصة واشكال اخرى غيرها وفي وسطها رسوم ازهار واقنعة مسرحية ورسوم وردية بشكل اقواس فهي ذات فائدة علمية .

ومن السهل ان نميّز بدون ريب وجود يد فنيين من الصناع قد اشتغلت بسرعة في آنٍ واحد فنقوش الواجهة الشمالية ذات « الطراز الخشن » هي من صنع العمال المحليين المستقل صنعهم كل الاستقلال عن النماذج الغربية اما نقوش الواجهة الجنوبية فالامر فيها على العكس فهناك فنانان عملنا جنباً لجنب في نحت النقوش البارزة « ذات الطراز المسطح » « وذات النحت الجميل » الذي يظهر فيه تأثير الفن الروماني للقرن الاول بعد المسيح .

ويقيم شغل فنة العمال الاولى البرهان على ان التقاليد السورية قد كان لها نصيبها في المجهود الفني العظيم الذي ندين له بوجود بعلبك ، وفي هذا دحض جديد لنظرية العالم الالماني اد . ڤيغاند (Ed. Weigand) الذي لم يشأ ان يرى في هندسة المكان المقدس وزخرفه الّا اموراً مستعارة من فن الامبراطورية الرومانية .

وما عدا سقوف المذبح العظيم التي نستطيع ان نؤرخ لها عن طريق المقارنة ثمة في بعلبك سقوف حجرية اخرى . فزخرف الفنة المحلية او «الطراز الخشن» قريب جدّ القرب من النقوش الناتئة التي تدلّص[1] قبة الردهة السفلى القائمة تحت ارض الهيكل من الجهة الجنوبية اما تاريخها فيعود الى النصف الاول من القرن الاول المسيحي . اما فنّ صناعة القبب الحجرية الشهيرة التي تتوّج رواق « هيكل باخوس » الداخلي المشيّد حوالي ١٦٠ سنة بعد المسيح فاكثر تقدماً وحداثة من فنّ صناعة سقوف المذبح البرج ، واحدث من فن هذا الصنع ايضاً سقف (الهيكل المستدير) . واستناداً الى النقوش الناتئة نستطيع التأكيد ان المذبح البرج قد بُني في عهد اسرة فلافيان في النصف الثاني للقرن الاول

١) دلّصَ : لبّن ولسّن ، والدلبص : اللبن البرّاق وماء الذهب .

المسيحي . وقد كان ذلك العهد الزمن الذي انجز فيه القسم الاهم من هيكل جوبيتر العظيم الذي ترتفع واجهته الباذخة ورواقه الداخلي فوق مستوى البلاط بعلو ٣٨ متراً .

فمن تجرأ اذن على ان يقيم هذا البناء المتراص الرصف الذي جئنا على وصفه كحاجب يحجب انظار اولى العبادة ؟ ان لم يكن الكهنة سدنة المكان المقدس وحفظة التقاليد الدينية ؟ اجل انهم هم وحدهم الذين اقاموا هذا البناء امام الهيكل المشيد على الطراز الروماني حرصاً على طقوس الذبيحة الجوهرية.

ومنذئذٍ يسعنا ان نتخيّل طقسين دينيّين يقامان في بنايتين في باحة الاضاحي فالمذبح الصغير القريب من الهيكل الذي اعادت انشاءه مصلحة الآثار وهو على « شكل برج ايضاً » من المحتمل انه كان مذبح الاضاحي الكبرى التي كان يقرّبها الكهنة. اما المذبح الكبير فقد كان مخصّصاً لاحتفال ديني اشد بساطة يأتيه بنفسه المؤمن الذي كان يقدّم قربانه من البخور والعسل وربما من الطيور وصغار ذوات الاربع .

والجماهير في روحتهم وجيئتهم المتواترتين وهي تحمل قرابينها قد ابلت درجات السُلّم لانها كانت تقوم (بالقربان على السطوح) اعني على الابراج والمصطبات. وعلى ما يبدو ان القربان على السطوح كان رائجاً في جميع الشرق القديم اذ كانت الفكرة الاولى للقيام بالعبادة ترى من المناسب ان يرقى المرء جبلاً او برجاً .

ومن رأي الاستاذ ر. ديسو (R. Dussaud) ان الشعار الديني الذي جاءت على وصفه قصيدة رأس شمرا في القرن السادس عشر قبل المسيح عندما ذكرت قربان الملك قريت قد انتشر في لبنان . ويفكر الاستاذان كولار وكوبل في ان هذه الطقوس الدينية كانت تجري ايضاً على برج « فقره » (Faqra) قرب فاريا، فهل تشاطر هؤلاء المؤلفين الرأي في ان القربان على البرج كان (قرباناً مشتركاً) ؟ اننا لنحجم متردّدين عن الاخذ بمثل رأيهم لانه

صعب كل الصعوبة حمل لحم الاضاحي المذبوحة من المذبح الصغير الى قمة البرج. اما المصطبة فكانت ضيقة كل الضيق لتستوعب مآدبة الاديان الشرقية المقدسة .

وبمناسبة ظهور البناية الجديدة لا بد من ان تعترضنا مشكلات عدة ! فكيف السبيل اذن لتعليل وجود رسم ديني واحد مرات كثيرة بين النقوش الناتئة كقضيب عطارد مثلاً ؟ وهذا القضيب نفسه يظهر كما تعلم في مخالب النسر الذي يزين السقف المزخرف فوق باب (هيكل باخوس) حيث كان يجري بخاصة تكريم الاله عطارد — ادونيس .

فهل نعتبر الاله ابن ثالوث هليوبوليس الاله الاكبر المرحد الذات مع هرمس — عطارد هادياً ومُدخلاً لذوي العبادة الصاعدين للتضحية على البرج ؟

وان كتاب الاستاذين كونار وكوبل ليثير التفكير في امور عدة فهو يوضح بخاصة اهمية العبادة التقليدية والكهنة الوثنيين الذين اصرّوا على ان يقوم امام الهيكل الجبار الذي بنته جوالي بيروت وهليوبوليس الرومانيتين على الطراز الغربي برج المذبح المتراصّ الذي يبيّن تصميمه ومركزه وتعشيته بالشبه « البرونز » وقسم من نقوشه فنون الشرق القديم .

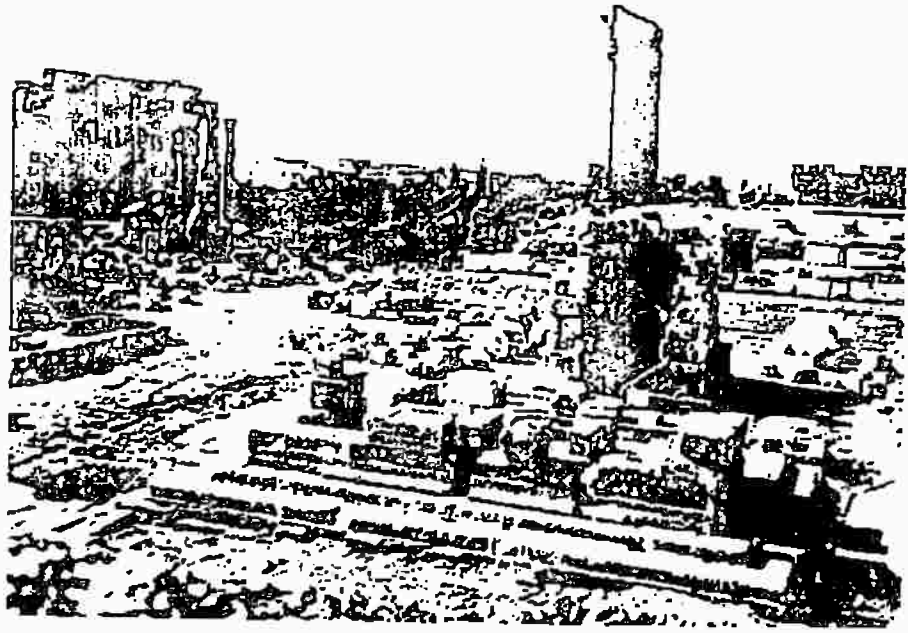

مذابح هيكل بعلبك : ١ ـ قاعدة المذبح العظيم بشكل برج . ويأتي في الدرجة الثانية المذبح الصغير وقد رؤي من جهة الشرق والدرج الكبيرة الصاعدة الى الهيكل

٢ ـ المذبح الصغير وقد رؤيَ من الجنوب الشرقي .

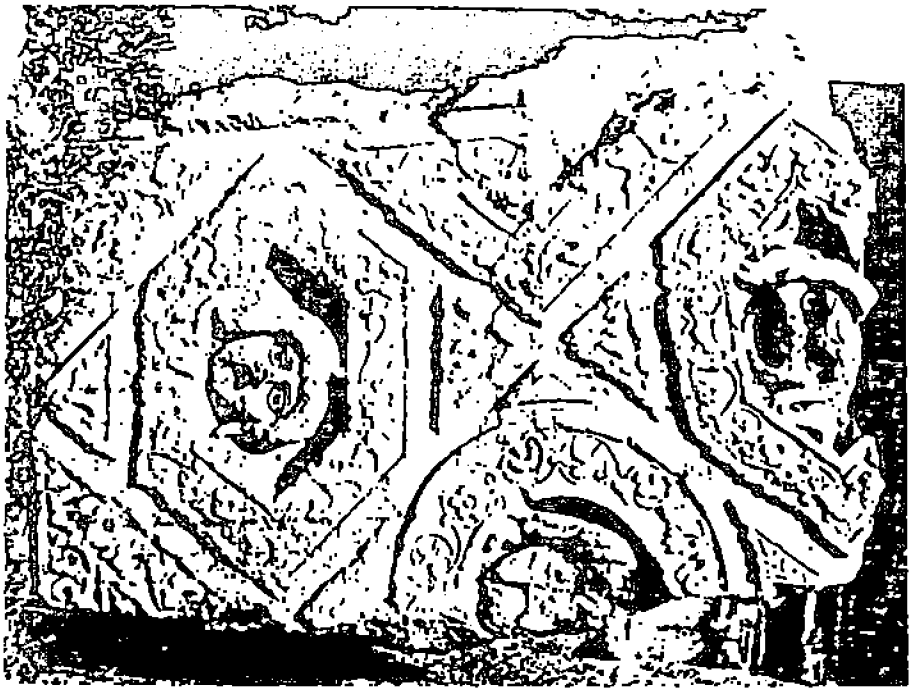

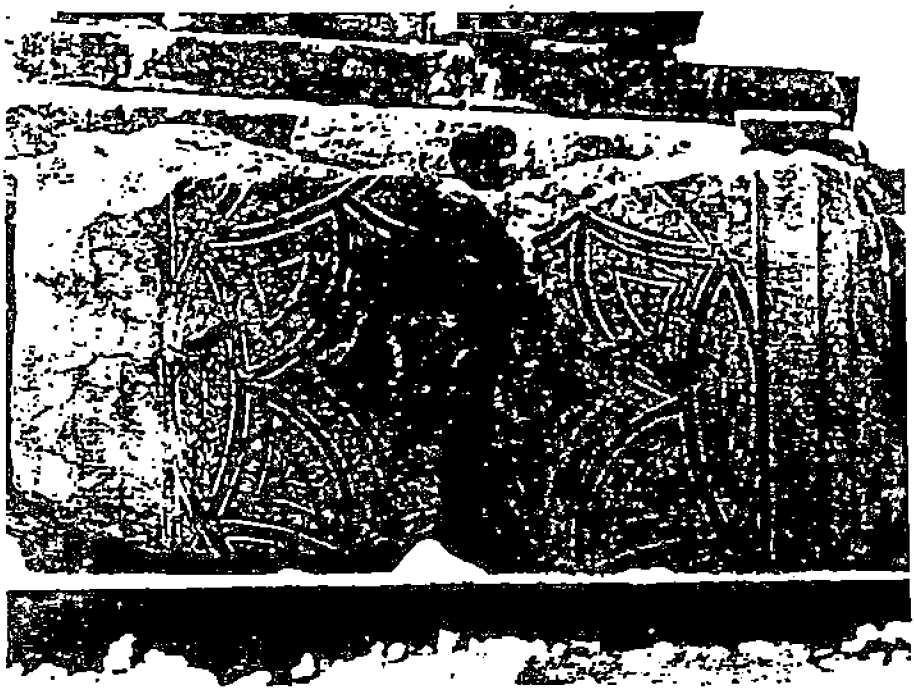

زخرف مذبح بعلبك العظيم ، نقوش السقوف الثالثة من الحجر ، ١ — مثال من الطراز الخشن ، ٢ — مثال من الطراز المسطح ، والطراز الجميل الخليط .